لباسُ المثقّف عريُه

ابتداءً من منتصف القرن الماضي أصبحت الجامعات في لبنان تعجّ بطالبي العلم والثقافة وخرّجت أفواجاً منهم شكّلوا مجموعة ما يُسمّى اليوم بالمتعلّمين/ المتعلمات وبالمثقّفين/ المثقفات. أترك جانباً المتعلّمين الذين ارتضوا لأنفسهم هذه الوضعية وعاشوا حياتهم موظِّفين اختصاصاتهم لتأمين العيش الكريم أو المستور لأنفسهم ولعائلتهم. أمّا المثقفّون وبخاصة منهم من لا يرضى إلاّ بكونه مكرّساً كمثقف، فهم موضوع الظاهرة التي أحاول تحليلها. وأبدأ بالقول إنّ كلّ من يدّعي أنّه مثقّف فهو جاهل لأنّ الثقافة ليست معطى يمتلكه الإنسان وينتهي الموضوع، إنّها مسار وسعي لا ينتهيان إلاّ مع الموت ولهذا السّبب آمل من الذي يصرّ على من منح نفسه هذا اللّقب أو يصرّ آخرون على منحه إيّاه أن يعي أنّه فقط يسير نحو تحقيق قدرٍ ما من الثقافة؛ فقليل من الوعي قد يحمي صاحبه من السّقوط في الادّعاء الذي يكون في أغلب الأوقات فارغاً ويقيه من التّحوّل إلى طاووس متجوّل.

لكن هذا إذا ماشينا الواقع وقبلنا مصطلح "المثقّف" الشائع في مجتمعنا فماذا نجد؟ إنّ مراقبتي لكتابات وأقوال ومواقف من يسمّون أنفسهم مثقّفين أو من يسميهم المجتمع مثقّفين، حملتني على تقسيمهم إلى ثلاثة نماذج أساسيّة مع بعض الهوامش غير المهمّة. هذه النماذج هي التالية: نموذج **عارض الأزياء** ونموذج **العاري** ونموذج **الملتبِس**، بين بين، وهو يكون أحياناً عارض أزياء وأحياناً أخرى عارياً.

أبدأ بالنّموذج الأوّل وهو الأكثر شيوعاً في مجتمعنا، لكن قبل التوسّع بعرض حالة الذين ينتمون إلى هذا النموذج، لا بدّ من التوّقّف عند ملاحظة تمهيديّة؛ كلنا يعلم أنّ ميزة عارض الأزياء الأولى والأساسيّة أن يتمتّع بجسد تتطابق مقاييسه مع المقاييس السّائدة والمتعارف عليها أي بعبارة شعبية معبّرة، أن يكون "جسمه لبّيساً"، يعني أن يكون مهيّئاً وجاهزاً لعرض كل "صرعات" الموضة وتقلّباتها. وهنا أعتبر نفسي غير مسؤولة إن بدأ البعض يتحسّس بوخزٍ تحت إبطه. إذاً هذا الصّنف من المثقّفين هو الذي تنقّل من موقع إلى آخر باحثاً عن انواجاده بشتّى الطّرق فلبس وخلع، فكرياً وإيديولوجيّاً أزياءً متعدّدة ومتنوّعة إلى درجة التناقض، همّه الوحيد هو اللّحاق بما يفرزه الفكر الغربي أو الفكر العالمي إجمالاً. ويلاحظ متتبّع الحالة الثقافية في لبنان أنّ مثقّف/ مثقّفة هذا النّموذج هو أوّل من يتلقف، استعراضياً، كل جديد ويتبنّاه إلى درجة التماهي، فتارةً يكون كنطياً وتارةً هيغلياً ثمّ سارترياً ثم فوكوياً أو داريدياً أو هيدغيرياً أو دولوزياً أو فرويدياً أو لاكانياً أو نيتشاوياً أو ... اللاّئحة تطول في كل المجالات والحقول الفكرية ولا يمكن تعدادها. هذا على

الصّعيد الفكري، أمّا على الصّعيد الإيديولوجي فالقضية أهم إذ أنّ المثقّف/ المثقّفة يبحث فيه عن انوجاده الفعلي أي السياسي فنراه يبدّل أزياءه بحسب الظّروف_ وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّه، أي المثقّف/ المثقّفة، من الصنف الذي يصرّ على أناقته، والأناقة هي أن يكون هندام الأنيق/ الأنيقة متماشياً تماماً مع الظّرف_. ولهذا السّبب وجدناه يتنقل بين الإيديولوجيات من الماركسية بكل تفرعاتها التروتسكية أو الماوية أو ... إلى الاشتراكية بكل تلاوينها إلى اللّيبرالية... إلى حزب اللّهية وصولاً إلى العمولية بأقنعتها الديمقراطية العراقية والفلسطينية وحالياً اللّبنانيّة. هذا ال"مثقّف/مثقّفة" لا يتورّع عن خلع الحجاب الذي ارتداه ودافع عن أحقيّة ارتدائه أو عن حلق لحيته التي دافع عن رمزيّتها ليتحوّل إلى سافرة وحليق، يشمّران عن سواعدهما ليتلقّفا الديموقراطية الوافدة إلينا بصورة الآنسة كوندليزا رايس، الديموقراطية القائلة بالانصهار بالدولة، والدولة هنا هي السّلطة الحاكمة، بل هي الدولة القائمة الآن، فيتحوّل مثقّف/مثقّفة هذا النموذج إلى بوق يُنفخ عبره القول السياسي للحكم السّائد فيخرج منه قولاً "ثقافياً" ليس إلاّ ترجمة حرفية لقول السّلطة. هنا تنتشي السّلطة الحاكمة وتصفّق له لأنّه أحسن الترجمة ولأن نصّه أتى مطابقاً لنصّها، وهكذا تكون قد مدّدت سلطتها من السياسي إلى الثقافي وأمسكت بالمجد من كل جوانبه. وبدوره ينتشي هذا المثقّف ويعتلي المنابر التي توفّرها له السّلطة الحاكمة أو أدواتها، فيقوم بعرض أفكاره وثقافته تماماً كما يؤدّي الممثّل البارع دوره في تمثيليّة ما. لكن الفارق بين الممثّل البارع والمثقّف هذا هو أنّ الممثّل يعي أنّه يمثّل بينما المثقّف لا يعي ذلك أو أنّه بكل وعي وانتهازية يستبدل وعيه بانوجاده على السّاحة وهي مهارة لا يمتلكها إلاّ صاحب الوقاحة الفذة التي لكثرة استعراضيته يعتبرها قوة أو شجاعة ليست هي بالفعل إلاّ تذاكيّاً غبيّاً.

فعند هذا النموذج، الثقافة تعني اللّباس الذي يظهر فيه أمام الآخرين غير آبه بكيفية ظهوره أمام نفسه، ما يهمّه هو نظرة الآخر إليه وليس نظرته إلى ذاته، هو إذاً يواكب التّغيير لكي يكون في طليعة كل جديد، وهذه المواكبة ليست عفوية بل هي ممنهجة ومرسخة على قاعدة نظرية تحمّل كل البناء الفكري عند هذا المثقّف وهذه القاعدة تقول أنّ التاريخ هو الزمن وهو قول صحيح ظاهريّاً. لكن ماذا تعني هذه المعادلة بالفعل؟ إنّها تعني أنّ المثقّف، عارض الأزياء هذا، يتماهى بالتاريخ كما يفهمه ويعيش على أكل مواقفه وأفكاره وتطلّعاته السّابقة تماماً كما "كرونس"، إله الزّمن عند اليونان هو الإله الذي يأكل أولاده، لكن هذا المثقّف لا يأكلها كي يتغذّى وينمو بها بل أنه يغتالها ويحاول نسيانها كي يستمرّ وكأنّه ابن اللّحظة الرّاهنة، المتجدّد أبداً والذي لا يشيخ وكأنّه يقوم بعمليّة شدٍّ تجميليّة لوجهه الثقافي كلّما لاحظ تجاعيده الدّالة على تراكم ما وهو ضدّه لأن تاريخه هو بالضبط هذا التراكض اللاّهث وراء الصورة/ العرض وكأنّه يخجل من حقيقة جوهره وهو على حق بذلك لأنّ جوهر مثل هذا المثقّف ليس سوى خواءٍ قابلٍ لأن تتلبّسه كل التّشكلاّت.

أمّا النّموذج الثاني، نموذج المثقّف/ المثقّفة الذي يلبس عريه فهو على نقيض النموذج الأوّل، ديناميته الثقافية هي داخلية ولا يبدّل أزياءه بل يتخفّف منها استيعاباً، سعياً وراء اكتماله أي سعياً وراء أن يكون جلدُه هو لباسه. وكما أن الجلد هو الحدود الخارجية لبنية البدن فإن العري هو الحدود للبنية الثقافية. ولكن ما تكوُّن الجلد، هو تكوّن العري، أي أنّه مسار يبدأ مع الولادة وينتهي مع الموت ولهذا السّبب كل من يدّعي أنّه مثقّف أو يصنّف نفسه أو يقبل بتكريس نفسه كمثقّف يقترب من النموذج الأوّل الطاووسي. لكن ماذا يعني العري؟ إنّه بكل بساطة أن يظهر المرء على حقيقته مهما عظمت أو تضاءلت حقيقته هذه، فهو هو مع ذاته ومع الآخرين وهذا دليل على قبول الذات، وحين يقبل الفرد ذاته ويجسر على التّعرّي فهو، حكماً، يقبل الآخر، شرط أن يكون الآخر عارياً أيضاً. هكذا تبنى الديموقراطية وليس كما ينادي بها مثقّفو النموذج الأوّل لأن من يرفض ذاته لا يقبل أحداً. فإذا كان من شروط الديموقراطية أن أقبل الآخر كآخر مختلف عنّي، فكيف "يتجرّأ" مثقّف/ مثقّفة نموذج عارض الأزياء أن يتفوّه بلفظ الديموقراطية وهو يرفض ذاته؟ إنّه بالفعل لا يتجرّأ بل يتواقح ويتذاكى. وأعود لأسأل ماذا يعني هذا العري؟ إنّه فعل الاستيعاب والتّحويل والفرز والهضم و... فكما تتحوّل وتنمو البنية الجسدية للفرد بما يُدخل إليها من مأكل ومشرب و... كذلك بنيته الثقافية تتحوّل وتنمو بما يُدخل إليها من معارف في كل الميادين من دون استثناء. وهنا يبرز الاختلاف الأساسي بين النموذجين من المثقفين وهو اختلاف نظري حول مفهوم التاريخ؛ فإنّ كان التاريخ يعني الزّمن بالنسبة للنموذج الأوّل فإنّ التّاريخ يعني المكان لدى النموذج الثاني، والمكان هو هذا الامتداد الذي هو في تمدّد مستمر والذي تتواجد فيه كل ما أفرزته الإنسانية وفي كل الميادين، من هنا تهيّب السّاعي إلى الثقافة من حمل لقب مثقّف. وهذا التّهيّب الذي هو صدق مع الذات هو الذي يمنح الجرأة لمثقّف/مثقّفة هذا النّموذج لكي يسير عارياً بين المتنكّرين، مثقفي النموذج الأوّل. فإن تنكّروا لإخفاء عورات جسدهم الثقافي فإنّه هو يتعرّى لأنّ لا عورات في جسده الثقافي أو أنّه وبكل جرأة لا يخاف من إظهارها.

أمّا علاقة مثقّف/مثقّفة هذا النموذج بالسلطة فهي على الشكل التالي: يقول هذا المثقّف/ المثقّفة قوله الذي هو قناعته الفعلية فيكون فعلُ القول هو هو فعل الانوجاد. فإن تبنّته السّلطة وأتى قولها ترجمة سياسيّة له تنوجد الدولة الفعلية التي تعرف كيف تمارس الديموقراطية والعدالة والسّيادة والحريّة و... وإن لا، كما هو حاصل الآن، فإنّ السّلطة تكتفي بأبواقها، مثقّفي/ مثقّفات النموذج الأوّل لتمدّ سلطتها على كل الأراضي اللّبنانيّة. لكن عليها أن تعلم أنّ المثقّف العاري عصيٌّ على الخضوع، وأن بسطَ سلطتها على كل أراضيها يتوقّف عند حدود جسده الثقافي العاري.

من الفروقات العديدة الأخرى التي تميّز بين النّموذجين من المثقّفين أكتفي بذكر واحد منها هو الفارق بين الإجهاض والحمل؛ إنّ مثقّف/ مثقّفة النّموذج الأوّل بسبب هرولته وراء كل جديد فهو عاجز عن إتمام عملية الحمل فيجهض كي يمتلئ من جديد. لكن سرعة التطوّر الحالي، وفي كل المجالات قد منعته حتّى من عملية الحمل وذلك لأن التاريخ في مفهوم هذا الصنف من المثقفين/المثقفات هو الزّمن كما رأينا. أمّا الصّنف الآخر، المثقّف/ المثقّفة العاري وبما أنّ التاريخ لديه هو المكان فهو يمتلك كل الوقت لكي تتم عملية الحمل فيأتي قوله، المولود الجديد، طفلاً معافى وليس طرحاً كما قول المثقّف/ المثقّفة، عارض الأزياء. من هنا أسمح لنفسي بالاستنتاج التالي: إن كل مثقّفي النموذج الأوّل هم ذكور حتى ولو كان بينهم الكثير من نساءً، بينما كل مثقفي النموذج الثاني هم إناث حتى ولو كانت غالبيتهم من الرّجال. وهنا أتوقّف وأقف تحية لرمزين من رموز هذا النموذج اللذين تركانا من فترة قصيرة وهما العزيزان عصام محفوظ وحسن قبيس، فلهما ألف تحيّة.

يبقى النموذج الثالث وهو المثقف/المثقّفة الملتبس أو المتردّد الذي أحياناً يعي وأحياناً لا يعي التباسه وهو في مطلق الأحوال ضعيف لأنّه إن وعى التباسه كان أعجز من أن يتخطاه فيقع في المعاناة ويحاول أن يجد نفسه فيها فيصبح قوله التعبير عن مازوشيته، توصِل المتلقّي أحياناً إلى الغثيان. وإن لم يعِ التباسه، تحوّل إلى مهرّج وفصيح مناسبات يتغيّر لونه كما يتغيّر لون جلد الحرباء وفقاً للون المكان الموجودة فيه. ويتميّز بعض أذكياء هذا النموذج من المثقفين/ المثقفات بلعب دور اللاّمبالاة والتّنظير للهامشية وما سواها من مقولات تبرّر عجز جسدهم الثقافي عن الظّهور عارياً، وهم بالإجمال، أقرب سياسياً، إلى النّموذج الأوّل، نموذج عارضي الأزياء لأن ضعفهم يجعلهم يخافون السياسي ويحاولون أن يستمدّوا منه قوّتهم فيتحوّلون إلى سلع يحدّد الشّاري أسعارها. فهنيئاً لهذا المثقّف/ المثقّفة بأسياده الجدد أصحاب الثروات والأموال النّظيفة؟ وهنيئاً للشاري بهذه البضاعة الكاسدة.

د. إلهام منصور